العلم والفلسفة والاخيلة الشعرية (١)

للامير مصطفى الشهابي

أشرتُ في المقالة التي عنوانها «هواجس في الانسان وحياته» وهي المنشورة في مقتطف نيسان «ابريل» من السنة الحاضرة الى ان العلماء (أو اصحاب الفلسفة اليقينية) لا يؤمنون بغير ما يمكن اثباتهُ بالطرائق العلمية من مختلف العلوم التي تقع تحت الحس او تدرك بدلائل عقلية راهنة. وقد يشدهون في اصحاب فلسفة ما وراء الطبيعة ويتهمونهم بأنهم اناس يرجمون بالغيب ويتيهون في بيداء من الاوهام ويتخبطون في خضم من التخيلات الفارغة عند ما يجزمون العلة والمعلول وقدم العالم أو حدوثه والأزل والأبد وكنه القضاء وشكلهُ وأسباب الوجود وغير ذلك من التصورات التي لا تُحس ولا يمكن لعقل السليم ان يثبتها على الطرائق اليقينية. ويغالي بعضهم فيتّهم الفلاسفة المذكورين بأن كل اهتمامهم اخيلة شعرية لا تتعدى اذهانهم ولا يقوم دليل علمي على وجود مدلول هذه الأخيلة خارج اذهان هؤلاء الفلاسفة. ويستنتج العلماء المشار اليهم انهُ ما دام الأمر على ما ذكرنا فالأجدر تركُ الابحاث الفلسفية واطراحها جانباً وعدم التعرض لها البتة

ويهب الفلاسفة في وجه العلماء قائلين: لقد آمنا بشرائعكم العلمية التي تريدوننا على الاكتفاء بها ولكن هذه الشرائع ليست كل شيء في هذا العالم ولا يمكنكم منع دماغنا عن تأمل هذا الكون واستقصاء اطواره وعلاقته بذلك الانسان الذي لا يفتأ يجالد في الحياة ويكافح وهو كثيراً ما يتألم وقليلاً ما يفرح وربما كتب له النصر أحياناً لكنهُ من المتحتم عليه ان يهلك في النهاية مقهوراً مدحوراً. ثم ذلك العقل البشري اليس له حاجات طبيعية يجب قضاؤها؛ وذلك الفكر الجيّاش بالخواطر والأخيلة اليس من الضروري ان ننفذ الى اعماقه حيث نرى منتجاته فنفرز فيها السمين من الغث وارادتنا التي تتباهى بها اليس لها مطالب يجب إثباتها وتقديرها حق قدرها. وهذه الطبيعة التي نراها هل تسير بذاتها ام لها علة تسيّرها؛ واذا كان هنالك علة فهل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكن إدراكه؟ وهل للكون حدود في الفضاء أم لا، وهل له بداية ام هو ازلي اذ لا بد من أن يكون أحد الأمرين صحيحاً. وما هي ماهية الانسان ومن أين اتى والى أين يذهب وهل العالم مخيّر ام مسيّر بجبرية لا

(١) كتبت بعد تلاوة تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد ومستقبل فلسفة ما وراء الطبيعة لفويه Alfred Fouillée الفيلسوف الفرنسي والحركة الفكرية ضد العلوم اليقينية المعنوية لفويه أيضاً والفرق بين الفرق للبغدادي

تترجرج. وهل أمام العالم رقي ام هو يدور ابديًا على حاله ، وما الحركة العامة للكائنات وما الحكمة فيها. وهل القواعد الاخلاقية شريعة بشرية واجتماعية حسب أم لها اساس في الطبيعة كلها

ويضيف الفلاسفة الى ذلك أن تأثير الفلسفة في حياة الناس الأخلاقية والاجتماعية أمر لا يمكن للرجل المستنير أن ينكره . ولا تكون سيرة الانسان واحدة اذا ما اعتقد بأن عالم المادة والحواس هو كل شيء أو اذا ما اعتقد بأن وراء ذلك حياة اعلى واتم واقرب من الحقيقة. ولا يكفي ان يلقي الانسان الحبل على غاربه ويقول « لا أدري » فاللاأدرية غير واردة لانها تحكم بأن العقل البشري عاجز عن ادراك هذه الامور دون أن تناقش وتتوخى اثبات صحة هذا العجز أو عدم صحته . هذا ولكل عالم فلسفته حتى اينشتين نفسهُ فان العلم اليقيني لم يمنعهُ عن البحث في الفضاء — الزمن وهو من ابحاث الفلسفة لا من ابحاث العلوم اليقينية. والخلاصة ان الفلسفة تدوم ما دام للانسان دماغ يفكر في هذا العالم وفي غوامضهِ

عند ما يصل الفلاسفة في تبجحهم الى هذا الحد ينفد صبر العلماء فيقولون :

لو ذكر الفلاسفة بحثهم على المدركات خاصةً وعلى ارتباط ذهننا بما لا يمكن ادراكه لسكتنا على مضض ولتركناهم يتناولون هذه الموضوعات التي قد تكون صحيحة او غير صحيحة . اما ان يعمدوا الى ما لا يمكن ادراكهُ كالعلة او الله مثلاً فيبشرونا بأنهُ موجود او قابل الوجود او غير قابل الوجود او يمكن ان يكون على شكل ما أو لا يمكن ان يكون على شكل ما أو له صلة بالكائنات او لا صلة له بها او ان الكائنات صورة منهُ او انها ليست صورة منهُ فهذه امور لا يستطيع العقل البشري ان يجزمها والاجدر بالانسان اذا ما سئل اسئلة كهذه ان يسكت ويقول لا ادري او ان يجيب بلفظة «ربما» دون غيرها . وجزم الفلاسفة لما لا يمكن ادراكه يجعل العلماء يسخرون بهم لاننا نرى كل فيلسوف يقطع امراً مخالفاً لما قطعه رفيقه فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ هذا يقول بقدم العالم وبكونه موجوداً مع الله ومساوقاً له وبأنَّ خالق العالم من القدم في دائرة الزمن اعتقاداً من الحماقة بمكان . فالعالم ازلي لا بدء له وهو لم ترجده علة وذاك يقول بعكس ذلك اي بأن العالم مكوَّن ومحدث وعلى ذلك اصحاب الاديان . ومع هذا لو سألتهم اصحيح ان العالم خلق منذ نحو ٨٠٠٠ سنة اجابوك ان ذلك مخالف لقواعد العلم والفكر الاساسية لان الفكر لا يتصور ما هية العدم ولا كيفية خلق الكائن منهُ ولا السبب الذي حمل الآلهة على اتيان هذه الاعجوبة منذ ٨٠٠٠ سنة او اكثر او اقل . اما العلة التي كوَّنت هذا العالم فقد ذهبوا فيها كل مذهب فاليونان خاصة والرومان بعدهم جعلوا لكل شيء الهاً او اكثر وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان نتصوره من صفات بشرية فالآلهة لديهم تتحارب وتتخاتل وتتشاجر وتسمر للطرب وللالعاب وترتاد اماكن الريبة ومجالس الفساق فتفكر وتعربد وتتنازع الجيلات الحسان من إناث الآلهة الى آخر ما يمكن للناس ان يعملوه حتى السفلة منهم

وهذا جوبيتر (المشتري) اب الآلهة ورئيسها ورب السماء والارض أتدري بأي اعجوبة جاء الى هذا العالم ؟ لقد خرج من فم ابيه ساتورن وعداً او نذر بأنهُ سيلتهم اولاده عقب ولادتهم ومنهم جوبيتر. فحزنت امرأته حزناً شديداً وفتقت طفلها قريحتها بعد لأي أن تضع حجراً مكان ابنها جوبيتر حتى اذا ما جاء الأب ليوفي بوعده التهم الحجر بدل الطفل . وكذا كان . لذلك نجا رئيس الآلهة جوبيتر من الموت الزؤام وادرك اباه فهوى به عن العرش ثم اخذ يقرق الكائنات على الآلهة لكنهُ لم يغفل عن حقوقه الشخصية فاحتفظ لنفسه بالسماء والارض معاً. ونظر الى ذوي القربى فبرّ بصلة الرحم وجعل اخاه نبتون إله البحر واخته سرس إلهة الزراعة وابنته ديانا إلهة الصيد وابنته مينرفا إلهة الحكمة والفنون . اما بناته التسع الملهمات الشعر للشعراء فقد جعلهن ربات الفنون والاعلاق النفيسة . فأعجب لهذا الاله القادر وسل نفسك ماذا كان يحل بالعالم لو ان والدة جوبيتر لم تضع حجراً مكانه بل تركت اباه يبتلعه وهو طفل في حجرها ...

ثم انظر الى فينوس الزهرة إلهة الجمال المولودة من زبد البحر ما اجملها وهي تخرج من بين الامواج وبدها تعقص شعرها فكم تمنت فتيات اليونان ان يحاكينها بجمالها الساحر الفتان ولا تنس ذكر سرس إلهة الزراعة ولكن اذا كنت مثلي ذا صلة بالزراعة والنبات فلا تتردد واعبد من شئت ممن انعموا عليك من ارباب الزراعة الخالدين مثل اوزيريس المصريين ونينيب الكلدانيين وغيرهما

ولكن أليس من الغريب ان هذا الجيش من الآلهة لم يرض احدٌ منهم حتى اليوم بأن يتجلى امام احد من سكان هذه الارض الحيارى البائسين واين الجن والابالسة الذين طالما تغنى بوصفهم الشعراء وأخيف بذكرهم الاطفال وقد در فيلسوف المعرة القائل :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت بهِ حيًّا يحسُّ لجنيٍّ ولا ملك

واذا نبا عقلك عن عبادة آلهة اليونان والرومان فعليك بآلهة المصريين الاقدمين فقد كانوا ايضاً عظماء لدى الناس مثل رع وايزيس واوزيريس وسائر الفراعنة وهم كثر . ويمكنك ان تعبد النيل وتجزم مثلهم ان ماءه ينزل من السماء ومع هذا لا تنس ان رواد اياسنا هذه قد كشفوا الغطاء عن منبعه وتبعوه حتى مصبّه فاذا بهِ لا صلة له بالسماء البتة

وربما جال في خلدك أن تتخذ لك صنماً تعبده . لكنني أخشى أن يكون من عجين أو حلوى فتضطر الى أكله في مضطرب هذه الأزمة الاقتصادية كما فعل بعض العرب قبل الاسلام . واخشى أيضاً أن يصيبه ما أصاب صنم بني سليم وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما هو ذات يوم جالس بعيداً عنهُ اذا بثعلبان اقبلا وهما يشتدان فشغر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليهِ غاوي متأملاً وقال

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

وتمجّسْ إن شئت واعبد النار والنور أو عليك بالأله برهما واوجهي الثلاثة أو آمن بأقانيم النصارى أو بالله المسلمين الواحد الأحد أفتظن انك وصلت الى حيث تبتغي أي بلغت سدرة المنتهى فارتاح فكرك وخلا من هواجسه . انك باصاح ما برحت امام مذاهب عدة في كل من هذه الديانات . وأنت تحار أيها اصدق . فاذا كنت مسلماً مثلاً اتكون من القدرية او المعتزلة او الجهمية او المشبّهة الى عشرات من الفرق التي يكذب دعاة كل منها اتباع الفرق السائرة. او كنت من المسيحيين فربما ضعت في معترك الفرق النصرانية. وبعد مهما يكن نوع اعتقادك بالعلة الاولى فإياك ان تجعل منها في حياتك سبباً للكره والنزاع والقسوة والا عدنا الى مثل مذابح « سان برتلمي » الوحشية ايام شارل التاسع في فرنسا او الى مثل فظائع الأزارقة من الخوارج في الأسلام الذين نال القائد الكبير المهلب ابن ابي صفرة بحاربهم مع ابنائه تسع عشرة سنة

* * *

ومتى بلغ العلماء هذا الحد من التعرض لمذاهب الفلاسفة واللاهوتيين الذين يتناولون بابحاثهم ما لا يمكن ادراكه كالعلة الأولى مثلاً فيفضلونها على قدر عقولهم اوعلى قدر ما تبلغه اوهامهم يغضب الفلاسفة على العلماء ويقولون : متى كانت علومكم هي الحقيقة اليقينية بعينها. اليست العلوم مجموع شرائع ذهنية لحوادث الطبيعة تتصورها نحن كما تتصور الأبحاث الفلسفية. لا شك ان هذه الشرائع ترتكز على الحس والعقل وهي مضبوطة ضبطاً رياضيًّا في الغالب وتدعمها التجارب والوقائع الراهنة لكنها هي شيء والطبيعة نفسها شيء آخر . فالغاز مثلاً لا يتمدد بقانون ماريوط بل يتمدد بمؤثرات خفية لا يطلعنا القانون المذكور الا على نتائج عملها والا على حساباتنا الرياضية لهذه النتائج . ولذلك نرى ان الطبيعة والحقيقة الواقعية تجهل شرائعنا وارقامنا وطرائق تصورنا للطبيعة وتمثيلنا لها . وليست القوانين العلمية في النهاية سوى افكار تجول في خاطرنا كالافكار الفلسفية . وهذه الافكار شيء وعالم الطبيعة كما قلنا شيء آخر . ثم لنفرض اننا اتينا الى هذا العالم بعد ملايين من السنين واننا حللنا كل حوادث الطبيعة بقوانين لا تقبل الاخذ والرد أوضبطنا كل هذه القوانين بقانون أعلى يشملها جميعاً افتظنون ان دماغنا يكتفي بذلك ام هو يتساءل هل هذه الحوادث وقوانينها العلمية والقانون الاعلى لقوانينها هي كل شيء في هذا الكون وهلا يوجد شيء داخلها أو خارجها ؟

وبعد هذا كيف يطعن العلماء بالفلسفة متمثلين بمذاهب فلاسفة القرون الاولى والوسطى مع أن فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما ارتقت العلوم نفسها فصارت تتخذ بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة

وبعد ان يكت الفلاسفة ويشفرا غليلهم من العلماء يقوم الشعراء الخياليون متحررين متحررين من القيود الحسية والعقلية التي يتقيد بها الفريقان فيقولون . اما نحن ياسادتي فلنا الاخيلة الواسعة والتصورات التي لاحدَّ لها سواء اكان لها ظلٌّ من الحقيقة املا . فنحن اذا شئنا ضربنا الآلهة بعضهم ببعض واوقفنا الافلاك عن الدوران ووحدنا الاضداد واعدمنا الموجودات وخلقنا ما اردنا من العدم . فان قتم هذه اوهام سينمية لا تتعدى اذهاننا فلنا اثبتوا لنا ان العالم لا يصح ان يطلق عليهِ اسم اسيدنا الاكبر . . . واثبتوا انهُ لا يوجد وراء حواسنا الخمس اشياء يجب لادراكها ان يكون لنا غير هذه الحواس . . .

* * *

ومتى وصلت المهاترة الى هذا الحد يقوم رجل حكيم منصف وزن الامور بميزان العقل فيقول : لكل من العلوم والفلسفة والاوهام الشعرية حدود يجب ان تقف عندها . فالعلم اليقيني اليوم يتناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بالشخص الذي يحس ويفكر او صلتها بمجموع العالم . ولا يهتم في العلوم اليقينية الاَّ لمعرفة ماهية الصلات التي تربط الاشياء الثابتة بعضها ببعض ولذلك يمكن في العلم ان يتطلع الانسان لمعرفة النتائج من المقدمات اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقتها وادت الى حدوثها دون ما حاجة الى معرفة الاسباب التي اوصلت الى ذلك اي الى حصول الحادث اللاحق من الحادث السابق . وتكون العلوم اليقينية ثابتة لانها تفرض بادئ بدء صحة شيء ما دون الابتعاد عنهُ وتقف عند النتيجة الحاصلة دون ان تتعداها . والعلم اليقيني كما ترون صحيح بذاته لكنهُ لا يتناول سوى جزء من الاشياء الحقيقية عدا ان كل علم لا يتعدى الحدود التي رسمت له . فالميكانيكي مثلاً لا يهتم لغير الحركة والرياضي لغير الارقام والمساحات وهكذا . والعالم في نظر العلوم اليقينية كالمرآة المكسورة يتناول كل علم قطعة منها

اما الفلسفة فانها تجمع قطع هذه المرآة وتسعى لرؤية صورة الكون بها . فالفلسفة اذن هي التطلع لمعرفة الكون بمجموعه ومعرفة النفس التي تدركه . وهي ايضاً انتقاد العلوم وتحديدها واعلامها بافكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية . والسؤالان العظيمان اللذان تتناولها الفلسفة هما كيف يمكن معرفة الاشياء وكيف تكون هذه الاشياء . ويجب ان لا تتناول الفلسفة سوى المدركات وسوى علاقة ذهننا بها لا يمكن ادراكه ولا ينبغي لها ان تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بته

ويتضح من ذلك ان الفلسفة ترتكز منطقياً على الاستقراء وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات اما الاخيلة الشعرية فاوهام لا نحسها ولا نعقلها